

القرآن الكريم والسيدة زينب بنت علي عليهما السلام



القرآن الكريم والسيدة زينب بنت علي عليهما السلام

العالم الإسلامي يموج هذه الأيام برد الفعل تجاه الاهانة التي نزلت بالقرآن الكريم في السويد والدانيمارك، كما نعيش هذه الأيام ذكرى كربلاء، وما حلّ بأهل بيت رسول الله(ص) بعد واقعة كربلاء. نعيش ذكريات مواقف بطلة كربلاء في الكوفة وفي الشام.

نستحضر ما تضمنته خُطابه من أدب قرآني يدلّ على حضور كتاب الله العزيز بشكل واسع في أدب هذه المرأة التي واصلت مسؤولية أخيها الحسين(ع) في أصعب الظروف - وفي حديثنا اليوم نقف عند الأدب القرآني لهذه السيدة لنبين أن ما نهضت به من دور إنما كان نتيجة لتفاعلها مع المدرسة القرآنية.

نقصد بالأدب القرآني هنا تأثير القرآن لفظاً ومعنى في الخطاب الزينبي، وأكتفي هنا بذكر نماذج من هذا الأدب في خطبة عقيلة بني هاشم لأبيّ - كما ذكرت - حقيقة تفاعل هذا البيت الكريم بالقرآن وتربيتهم القرآنية وتوهّج الروح القرآنية في نفوسهم، وانطلاقهم في دعوتهم على أساس كتاب الله

نقف أولاً عند بعض مقاطع خطبتها في الكوفة. تقول:

«يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر أتبكون فلا رقات الدمعة، ولا قطعت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نفضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم».

مثلت السيدة قتلة الحسين وخاذليه بما مثل به القرآن تلك الجماعة المهزومة المترددة التي تردت في عهودها وأيمانها فقال لهم الله تعالى: (وَأَوْوُوا بِرِعْهِدِ الْإِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ الْإِلَاحَ عِلَالًا إِنْ اللّٰهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بِيَدَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنْ زَمَمَا يَبْدُلُوكُمْ إِلَّا بِهٍ وَلَئِيْبِيْذَنِّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (النحل: 91- 92).

عجيب تشابه المترددين والمتخاذلين.. هذه الجماعة التي يخاطبها القرآن تنقض العهد والأيمان لأنها ترى أمة كفار قريش أربى من أمة المسلمين.

وهؤلاء القوم الذين تخاطبهم زينب يرون يزيد بهيله وهيلمانه وعظمته وسلطانه أربى من الحسين وأهل بيته، فابتلاهم الله بين المصلحة الآنية الضيقة وبين المصلحة الحقيقية التي توفر لهم عز الدنيا والآخرة، فاختاروا عرض هذا الأدنى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

وتقول في مقطع آخر من تلك الخطبة: «أتبكون وتنتحبون؟! أي والله فابكوا كثيراً واصحكوا قليلاً».

وفي هذا العبارة إشارة رائعة إلى قوله تعالى: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلَا يَصْحَكُوكُمْ فَلَا يَلَاؤُا وَلَئِيْبِيْذَنِّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (التوبة: 81-82).

وفي هذه الآية أيضًا إشارة إلى المتخاذلين المتقاعسين عن التحرك نحو الله، والمنشدين بالمال والمتاع، والمتذرعين بأتفه الأمور تبريرًا لوضعهم المتخلف. وهؤلاء سوف لا تدوم فرحتهم، بل ستعود وبالاً عليهم، وما أشبه المخاطبين في هذه الآية بمن تخاطبهم زينب. وما أروع إشارة زينب في تضمينها القرآن الذي يحمل كل هذه المعاني الكبرى!!

وفي مقطع آخر من نفس الخطبة تقول:

«لقد ذهبتم بعارها وشئناها ولن تترحوها بغسل بعدها أبدًا، وأننى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة وملاد حيرتكم، ومفزع نازلتكم ومنازل جنتكم، ومدوره ألسنتكم، ألساء ما تزررون، وبعدًا لكم وسحقًا، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، ويؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

وفي المقطع إشارة إلى أحاديث رسول الله في الحسين وأهل البيت عليهم السلام لا نقف عندها، بل نكتفي بالإشارات القرآنية.

عبارتها: ألساء ما تزررون، مستلهمة من قوله سبحانه: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغُوتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْ زَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَزِرُونَ) (الأنعام: 31).

ومستلهمة من مقطع قرآني عظيم في دلالة على الموقف يقول سبحانه: (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوقُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ، لَا جَرَمَ أَنْ سَاءَ لَإِيَّامِ الْيَوْمِ مَا يَكْفُرُونَ وَمَا يُعْلِمُونَ إِنْ نَزَّهُ لَّا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّا آذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، لِيَحْمِلُوا أَوْ زَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْ زَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ، قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) (النحل: 22-26).

لاحظ المشتركات بين المقطعين المذكورين: التكذيب بلقاء الله، المصير الخائب لهؤلاء المكذبين، الأوزار

التي تثقل ظهور هؤلاء المكذبين.

عقيلة بني هاشم كانت تخاطب جماعة مسلمة تبكي على مقتل الحسين، ولكنها كانت ترى أن هذا الإسلام لم يبلغ في نفسها درجة الإيمان، ولو كان قد بلغ درجة الإيمان لتحوّل إلى طاقة روحية تأبى الصيم وتدافع عن الحق وتنصر الحسين وتقارع دولة الظالمين. ولكن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، فكانوا للظالمين عوناً، لم يشاركوا مسيرة الحسين إلاّ بدموعهم، ولا قيمة للدموع التي لم تصحبها حركة إيمانية نحو تحقيق أهداف الحسين.

هؤلاء استكانوا للدنيا وانشدوا بالمال والمتاع طائنين أنهم سيأمنون وسيرغدون، دون شعور منهم بأن كل شيء بيد الله لا بتدبيرهم وتقديرهم.

ثم قولها: «بُعْدًا» و«سحقًا» من أدب القرآن في مقارعة المنحرفين عن طريق رسالة الأنبياء:

(بُعْدًا لِّلْقَوِّمِ الظَّالِمِينَ) (هود: 44) (بُعْدًا لِّلْعَادِ قَوْمِ هُودٍ) (هود: 60) (أَلَا بُعْدًا لِّلَّذِينَ هُمْ يُعْبَدُونَ) (هود: 68) (أَلَا بُعْدًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ تَوْهِنِهِمْ) (هود: 68).
(فَيُبْعَدُونَ لِّلْقَوِّمِ لَا يُؤْمِنُونَ) (المؤمنون: 44) (الملك: 11).

وقولها(ع): «فلقد خاب السعي».

تعبير يتكرر نظيره في القرآن الكريم عن خيبة كل الجبارين المفترين والظالمين والفاجرين:

(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (ابراهيم: 15). (وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى) (طه: 61).
(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) (طه: 111). (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس: 10).

وقولها: «وتبت الأيدي».

إشارة إلى ما نزل في ذم أبي لهب: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) (المسد: 1). وهو ذم للمكذبين الذين يقفون في صف أعداء الله.

وقولها: «وخست الصفقة».

تعبير قرآني يتكرر لدى الحديث عن خسران الذين يركّزون على ذاتهم، ويتعاملون مع كل شيء، من خلال تحقيق مصالحهم الذاتية: مصالحهم ومصالح ذويهم وأهلبيهم، يقول القرآن عنهم بأنهم لم يحققوا حتى لأنفسهم وأهلبيهم ربحتًا، بل إن كل تعاملهم الذاتي خاسر: (وَإِنِّ أَسْأَلُكَ بِتُؤْتُهُهُ فَتُدْعَاةُ الْعُقَلَابِ عَلَايَ وَجْهَهُمْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الحج:11).

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) (المؤمنون:103)

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الزمر:15).

ومفهوم الربح والخسارة له أهميته الكبرى في التصوّر القرآني. ومن هذا المفهوم تخاطب السيدة زينب أهل الكوفة بأنهم تعاملوا مع الحسين ومع يزيد بما تملبه عليهم مصالحهم الذاتية الآنية الضيقة وهي صفقة خاسرة.

وقولها عليها السلام: «ويؤتم بغضب من الله وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

مستلهم من آية تتحدث عن بني إسرائيل الذين أبوا إلا أن يهبطوا إلى أدنى مستوى من الطموح، وأحطوا درجة من الأمان والامال، فكانت طموحهم وأمانبيهم لا تتعدى شهوات البطن ومتطلبات إفراز المعدة، فذلوا وحق بهم عذاب رب العالمين بعد أن أبعدتهم هذه الطموحات الهابطة عن السير نحو الأهداف السخية التي وضعتها أمامهم الرسالة الإلهية:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَايَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لُحُومًا مِثْلَ نَضِيبَاتِ الْوَعْدَانِ فَذَلَّلْنَا بِهِنَّ الْإِنْسَانَ وَاجْعَلْ لَنَا جَبَلًا مَخْرُوجًا) (البقرة:61).

وننتقل إلى مقاطع من خطبة الشام، وأبدأها بما بدأت الخطبة به حيث قالت:

«الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين صدق الله كذلك حيث يقول: (ثُمَّ كَانُوا عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءِ أَلَّا يَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (الروم: 10).

هذه الخطبة تتجه فيها العقيلة إلى يزيد وتبدأها بهذه الآية التي جاءت في سياق الحديث القرآني عن المتجبرين الذين يتمادون في غيهم دون الاعتاط بمن سبقهم من الظالمين. يقول سبحانه:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ فُجُورًا وَأَثَارُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا، أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظَاهِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظَاهِمُونَ، ثم كان عاقبة...) (الروم: 9 - 10).

وفي الآية الكريمة التي تلتها السيدة زينب عليها السلام سنة إلهية تنطبق على كل المتمادين في غيهم والغارقين في طغيانهم، هؤلاء يعمدون إلى تكذيب الرسالات الإلهية كي يتخلصوا من عذاب الضمير ووخز الوجدان، وهي سنة تنطبق على كل الغارقين في أحوال الرذيلة. والاتجاه المادي في النظرة إلى الكون والحياة كان غالباً ينطلق من رفض نفسي لمدرسة الأنبياء قبل أن يكون رفضاً عقلياً وفكرياً. ينطلق من رغبة في إزالة الموانع التي تقف بوجه جموح الشهوات واستفحال الغرائز.

وما أكثر انطباقه على يزيد في سلوكه وفي عدائه للرسالة الإلهية. وتخطبه في مقطع آخر بقولها:

«فَوَاللَّهِ مَا فَرِيتَ إِلَّا جِلْدَكَ وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا لِحْمَكَ وَلْتَرِدَنَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) بِمَا تَحْمَلْتِ مِنْ سَفْكِ دَمَاءِ ذُرِّيَّتِهِ وَانْتَهَكْتِ مِنْ رَحْمِهِ فِي عَتْرَتِهِ لِحْمَتِهِ، حَيْثُ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ، وَيَلْمُ شَعْتَهُمْ، وَيَأْخُذُ لَهُمْ بِحَقْمِهِ؛ (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَعْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران: 169)».

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق حديث القرآن عن موقف المنافقين بعد معركة أُحُد، هؤلاء الذين يتظاهرون بالارتفاع إلى مستوى الرسالة ومستوى التضحية بألسنتهم، ولكنهم في واقعهم حريصون على الحياة الدنيا مهما كلف الثمن. الآية والآيات السابقة تتحدث عنهم كيف كانوا يخاطبون المؤمنين وكيف

كانوا يخاطبون أصحابهم من المنافقين، ثم تبيّن لهم معنى الموت في سبيل الله، والسعادة التي ينالها الشهداء:

(وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ زَنَوْا وَقُتِلُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا فَعُوتُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفُورِ يَوْمَ الْمَآذِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوََاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أََعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِلْخَوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران: 170-167).

وما أجمل هذا الدرس القرآني الذي تقدمه زينب ليزيد كما قدّمه جدّها من قبل لمنافقي زمانه.

وفي جزء آخر من هذه الخطبة تقول ليزيد: «وسيعلم من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلا وأيكم شرّ مكانًا وأضعف جندًا».

وفي العبارة تضمن مقطع قرآني يتحدث عن اغترار المنحرفين عن طريق الله بطواهر الحياة الدنيا وزينتها وبهرجتها، معتبرين هذه المظاهر الدنيوية معيارًا للتفاضل. وهؤلاء الذين مكّنوا ليزيد من رقاب المسلمين ما أرادوا إلا هذا المتاع الرخيص، وإلاّ هذه المغانم الزائلة وهذا العرّض التافه.

يقول سبحانه متحدثًا عن منطق التفاضل عند هؤلاء المنحرفين ويردّ عليه بأنه منطق تافه سرعان ما ستبيّن تفاهته إما في الدنيا وإما في الآخرة، وسرعان ما سيعلمون أن معيار تفاضلهم كان يقوم على أوهام: (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَلَيْسَ الْفَرَيفَيْنِ خَيْرٌ مِّمَّا مَلَآءُوا أَرْضَنَا وَهُمْ أَهْلُ أَكْثَرٍ قَبْلَهُمْ مِّن قَوْمٍ قَدْ فُتِنُوا فِي الْحَضْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَقُلُوا لَهُمْ هَذَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَقَدِ افْتَرَىٰ بَعْضُهُمْ أَلْفَاظًا يَصِفُونَ) (سجدة: 17-19).
وإِذَا السَّاعَةُ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِّمَّا كَانُوا وَأَضْعَفُ جُنْدًا) (مريم:

وتقول عليها السلام في مقطع آخر من خطبة الشام: «ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدنَّنا وشيكاً مغرمًا حيث لا تجد إلا ما قدّمت يداك وما ربك بطلاّم للعبيد».

وهذا مستلهم من سياق قرآني يركز على النفر الذي يركبه الغرور فلا يهتدي بعلم ولا يستنير بكتاب، بل يدفعه استكباره إلى إضلال الآخرين فيقول عنه القرآن الكريم:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّاهِ بِرَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّذِيرٍ، ثَانِيًا عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّاهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذْرٌ يُقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّاهَ لَيَسِّرُ بَطْلَامَ لِّلْعَبِيدِ) (حج: 8-10).

وكم هي قريبة مناسبة الخطاب القرآني ومناسبة الخطاب الزينبي!! وما أجمل التضمن والسياق!!

وتقول في نهايات الخطبة: «وهل رأيك إلا فندد وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين».

تضمن قرآني مستلهم من سياق قرآني يتحدث أيضًا عن المكذبين والمفتريين على الله. يقول سبحانه: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوَلِّدُكَ يَعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (هود: 18).

بعد ذلك نذكر حقيقة نحسبها هامة في واقعنا الراهن، وهي ضرورة حضور القرآن في قلوبنا ونفوسنا وسلوكنا ونهج حياتنا، وهذا لا يتحقق إلا إذا تفاعلنا مع الأدب القرآني وعشنا جمال ألفاظه وعباراته وتمتعنا بموسيقاه وأساليبه، كما أنه لا يتحقق إلا إذا شعرنا بكل وجودنا بأننا نحن المخاطبون بآيات الكتاب العزيز. وأذكر هنا عبارة لإقبال اللاهوري يقول فيها: أكثر ما أثار في حياتي كلمة سمعتها من أبي يقول: يا بني اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك.

إذا تلقينا القرآن بهذا الشكل فسيعيد كلام الله دوره في بناء الفرد الصالح والمجتمع الصالح، وسيتحول في نفوسنا إلى طاقة هائلة تدفع بنا لإعادة وجودنا الحضاري وإلى استعادة عزتنا وكرامتنا وإلى وحدتنا في المشاعر والقلوب والأفكار والله ولي التوفيق

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الشؤون الدولية